مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب

Issn : 2572- 0058 / E- Issn : 2676 - 1696

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد:09 العدد: 02 جوان 2025 ص 219 / 227

استثمار مقولات النقد الثقافي للغذامي في مقاربة الشعر المعاصر (قراءة في النسق المضمر عند مظفر النواب)

Investing in the concepts of Al-Ghadami's cultural criticism in approaching contemporary poetry (Reading in the implicit pattern for Muthaffar Al-Nawab)

سهام حشايشي*

جامعة خميس مليانة (الجزائر)

s.hechaichi@univ-dbkm.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/10 /16
تاريخ القبول:
2025/05/28

الكلمات المفتاحية:
- ✓ النقد الثقافي.
- ✓ النسق.
- ✓ الخطاب.
- ✓ الإيديولوجيا.
- ✓ السياسة.

الملخص:

يُعدّ النقد الثقافي أحد أهمّ فروع النظرية النقدية المعاصرة، وتتجلّى قيمته في شموليته وتنوّع مقارباته التي أثبتت فعاليتها، في تحليل الخطابات الأدبيّة وغير الأدبيّة، بعيدا عن خصائصها الفنيّة والجماليّة، ومن ثمّة الكشف عن تفاصيل معارضاتها وتعقيداتها وأبعادها الفكريّة، وفق آليات منهجيّة تقوم أساسا على ربط تلك الخطابات بأنساقها الثقافية المتعدّدة، وتأويلها بناءً على معطيات إيديولوجيّة وتاريخيّة ونفسيّة واجتماعية وكلّ ما تشمله منظومة الثقافة الإنسانيّة.

يروم هذا البحث، تقصّي جملة الأنساق السياسية المضمرة في شعر مظفّر النواب، في ضوء نظرية النقد الثقافي، ذلك أنّ قصائده تضجّ بمعاني الغضب الثوري، النضال السياسي، التحريض والمقاومة والالتزام، وكلّها أنساقٌ مبثوثة في ثنايا قصائده الملقبة بالأشعار المهرّبة.

Article info

Abstract :

*المؤلف المرسل

Cultural criticism is one of the most important branches of contemporary critical theory. Its value is reflected in the comprehensiveness and diversity of its approaches, which, have proven to be effective in analyzing literary and non-literary discourses, away from their artistic and aesthetic characteristics, thus revealing details of their oppositions, complexities, and intellectual dimensions. The latter is done according to systematic mechanisms based essentially on linking these speeches to their multiple cultural patterns and interpreting them on the basis of ideological, historical, psychological, social, and all that the human culture system encompasses. This article explores the implicit political patterns in the poetry of Muthaffar al-Nawab in light of the theory of cultural criticism since his poems are teeming with the meanings of revolutionary anger, political struggle, incitement, resistance, and commitment, all of which are scattered in the folds of his poems nicknamed the smuggled poems.

Received *16/10/2024*

Accepted *28/05/2025*

Keywords:

- *Cultural criticism*
- *Pattern*
- *Discourse*
- *Ideology*
- *Politics*

مقدمة:

يمثّل النقد الثقافي توجّها نقديا جديدا، غائم المنهج، متداخل المقولات، جاء مناهضا لبعض الدراسات البنيوية والنظريات الجمالية المعاصرة، التي تُعنى بالأدب كبنية فنية خالصة ومستقلة، وهو ليس بديلا عن النقد الأدبيّ بإجماع الباحثين، غير أنّ مساحته الإجرائية تتجاوز مساحة النقد الأدبيّ بكثير، حيث إنّه لا يختصّ بمساءلة البُنى النصية الأدبية فحسب، بل يتناول الإنتاج الثقافي بكلّ أنماطه ومضامينه، وسنحاول ضمن هذه الدراسة الموجزة، تقديم قراءة وصفيّة تحليليّة لمُعطيات النقد الثقافي، وأهمّ مقولاته النظريّة والإجرائيّة، ومن ثمّة النّظر في إمكانيّة مقاربة الشعر العربي المعاصر انطلاقا من تلك المُعطيات، والهدف من ذلك هو تحقيق مُقاربة منهجيّة تروم تحليل بعض النصوص الشعريّة لمظفّر النواب، والوقوف عند أهمّ الأنساق المضمرة فيها.

1. مفهوم النقد الثقافي وأدواته الإجرائية:

ذهب بعض الدارسين إلى كونه، أي النقد الثقافي، نشاطا أو فاعلية فكرية منفتحة على شتى التخصصات، لا حقلا معرفيا قائما بذاته أمثال **محسن جاسم الموسوي** الذي يعتقد أنّ النقد الثقافي ليس حقلا أو فرعا من فروع المعرفة، بل هو فعالية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية من المساس به أو الخوض فيه، إذ كيف يتسنى للناقد الأدبي أن يخوض في (العادي) و(الوضيع) و(اليومي) و(السوقي)، بعدما تمهر كثيرا في قراءة النصوص المنتقاة والمنتخبة التي يتناقلها نقاد الأدب ودارسوه على مر العصور (الموسوي، صفحة ص21)، بمعنى أنّ النقد الثقافي يستعين بجملة الحقول المعرفية لتقصّي النشاط الثقافي وأنساقه داخل المجتمع، ممّا يسوّغ فكرة فاعليته النشيطة وحركيّته المنفتحة في رصد شتى التمظهرات الثقافية في المجتمعات، ولا يجعل منه هذا النشاط حقلا معرفيا مقيدا بنظريات ومناهج ونظم إجرائية كالحقول المعرفية الأخرى.

كما يسعى النقد الثقافي إلى البحث عن الأنساق والدلالات المضمرة التي قد يسكت عنها النقد الأدبيّ، "فهو نشاط واسع لا حدود له، وليس مجالا مقيّدا بحدود، ويعرّفه **الغذامي** بأنّه فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثمّ فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية، معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكلّ تجلياته وأنماطه وصيغه" (الجرياوي، 2018، صفحة 1270)، أي أنّه؛ يتعامل مع كلّ الخطابات الثقافية دون استثناء، الرسميّ منها والهامشيّ، وفق مقاربات منهجية خاضعة لكثير من الخطط الإجرائية والآليات التي اعتمدتها المناهج النقدية الأخرى.

في السياق ذاته، تحدّث **عبد الله الغذامي** عن الانتقال من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي قائلا: "ونحن لو نظرنا في أمر المبحث النقدي لهالنا الاهتمام المفرط بكلّ ما هو أدبيّ/ جماليّ بالمفهوم الرسميّ للأدبيّ، وإغفال ما لا يندرج تحت تصنيف الجماليّ، وفي المقابل نرى أنّ الفعل الجماهيري والثقافيّ يقع تحت تأثير ما هو غير رسميّ، فالأغنية الشبابية والنكتة والإشاعات واللغة الرياضية والإعلامية والدراما التلفزيونية وما إلى ذلك، هو ما يؤثّر فعلا أكثر من قصيدة لأدونيس أو غيره من الشعراء الذين سخّر النقد جهده كلّه فيهم، غافلا عن الخطابات الفاعلة لمجرد أنّها ليست ممّا يُحسب في حساب الراقي" (الغذامي، 2005، صفحة ص15/14).

بمعنى أنّ؛ النقد الأدبي التزم بدراسة القيم الجمالية والبلاغية في النصوص الأدبية ذات الطابع الرسمي المؤسساتي ردحا من الزمن، تمّ التلاعب فيه بالذائقة الفنية، التي أضحت تفصل بين الرسميّ والهامشيّ، وبين الجميل والقبيح، استنادا إلى معايير نقدية قاصرة، بنظر **الغذامي**، فجاء النقد الثقافي كردّ فعل على النقد الأدبي ومتمّما له في الآن ذاته، كاشفا عن الخطابات الثقافية المضمرة، والمتوارية خلف عناصر النص الجمالية، أو المسهمة في تكوينه، ليكون الانتقال بذلك من النص إلى الخطاب بمفهومه العام والشامل.

في السياق ذاته، يذهب الباحث **عبد النبي اصطيف** إلى القول بأنّ ما أُثير حول مفهوم النقد الثقافي ومدى مشروعيته واختلافه عن النقد الأدبي، وغيرها من السجالات غير المجدية، لا مبرّر لها، ذلك أنّ الجميع يعرف ما النقد؟ وما الثقافة؟ وكما أنّ النقد الأدبي نشاط فكريّ ينتسب إلى الأدب، كذلك الأمر بالنسبة إلى النقد الثقافي، فهو نشاط فكريّ ينتسب إلى الثقافة، "غير أنّ ما غاب عن هذا بعضهم الأخير هو ما ينطوي عليه مصطلح النقد من خلافات تتّصل بدلالاته المتحوّلة عبر الزمان والمكان، وما يتّصل بمصطلح الثقافة من إشكالات محكومة بالمكان والزمان والبيئة المعرفية الخاصة به" (اصطيف، 2017، صفحة ص16).

فالنقد الثقافي، كمصطلح، يتضمّن شقّين معرفيين محلّ خلاف في التطور والمفهوم، هما النقد والثقافة، وهو ترجمة لمصطلح Cultural Criticism الذي يعني "النشاط أو الممارسة التي تمتح من معين الدراسات الثقافية Cultural Studies أو هذا الضرب من الممارسات البحثية التي تبنّاها وروّج لها مركز جامعة برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة The Birmingham University Centre for Contemporary Cultural Studies الذي أنشأه ريتشارد هوغارت Richard Hoggart وستيوارت هول Stuart Hall سنة 1964، وقد غدا بؤرة للحركة النقدية التي ناهضت التعريفات النخبوية للثقافة" (اصطيف، 2017، صفحة ص16)، ذلك أنّ؛ بعض الدّارسين كانوا ينظرون إلى مختلف أشكال الخطابات الثقافية ومواد الثقافة عموما، نظرة مفعمة بالطبقية والتفضيلية، تدعم بعضها وتهمّش الآخر، فكانت تلك المدرسة تناهض وترفض هذا التمييز، وعُدّت دراساتها الثقافية ذات الحقول المعرفية والمناهج المتعددة إرهاصا لظهور وتبلور النقد الثقافي (كممارسة/نشاط تطبيقي) بمفهومه المعاصر.

من جانب آخر، وعن علاقة النقد الثقافي العربي بنظرية (خطاب ما بعد الكولونيالية) التي أرسى معالمها الناقد **إدوارد سعيد**، فيمكن إجمالها في كونها علاقة تاريخية، ذلك أنّ هذه النظرية تُعنى بدراسة التطورات الثقافية التي شهدها العالم غداة الحرب العالمية الثانية، وهو المجال نفسه الذي اهتمّ به النقد الثقافي في أحد فروعه، "حيث سعى إلى تحليل الشروط المتسببة في إنتاج مختلف أنماط مؤسسات السيطرة والتأثير داخل ثقافة معينة من خلال تحديد وظيفة كلّ من القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تنتج كل أشكال الظواهر الثقافية" (عبد الرحمان، 2013، صفحة ص53)، وعليه فالبحث المشترك بين النقد الثقافي ونظرية ما بعد الكولونيالية، يتحدّد من خلال محاولة دراسة المراحل الاستعمارية وانعكاساتها على الفكر السياسي والتاريخي والاجتماعي والاقتصادي والأدبي والثقافي عموما، فكانت تصورات **إدوارد سعيد** متقاربة مع تصورات النقد الثقافي العربي من جهة تتبّع حركية المشهد الثقافي الذي خضع للهيمنة والسيطرة ردحا من الزمن.

ردفا على ما سبق طرحه، يعتمد النقد الثقافي جملة من الأدوات الإجرائية التي تعضد نشاطه التطبيقي المنهجي، وقد ذكرها **عبد الله الغذامي** في كتابه (النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، واصفا إياها بالأساسيات المنهجية التي تدعم مشروعه في النقد الثقافي العربي، وهي جملة من العمليات الإجرائية التي من شأنها إحداث نقلة نوعية للفعل النقدي من كونه الأدبي إلى كونه الثقافي، على حدّ تعبيره، ويمكن إيجازها فيما يأتي:

- ✓ نقلة في المصطلح النقدي ذاته.
- ✓ نقلة في المفهوم (النسق).
- ✓ نقلة في الوظيفة.
- ✓ نقلة في التطبيق.

أمّا **(النقلة الاصطلاحية)**؛ فتشمل ستّ أساسيات اصطلاحية هي على التوالي:

- **عناصر الرسالة (الوظيفة النسقية):** استند **الغذامي** إلى أبحاث **رومان ياكبسون** في الشعرية أو أدبية الأدب، التي تروم الإجابة عن سؤال: ما الذي يجعل من الأدب أدبا؟ فتحدث عن نموذجه الاتصالي ذو الوظائف الستة: المرسِل (الوظيفة التعبيرية)، المرسَل إليه (الوظيفة النفعية)، الرسالة (الوظيفة الشعرية/الجمالية)، السياق (الوظيفة المرجعية)، الشفرة/السنن (الوظيفة المعجمية)، الأداة (الوظيفة التنبيهية).

وأضاف إليها **الغذامي** عنصر النسق (الوظيفة النسقية)، على أساس أنّ كلّ أنواع الاتصال التي يقوم بها البشر، تُضمر أنساقا لا أدبية، تساعد على فهم الخطابات والتحكم بها دون أن تؤثّر سلبا على جمالية تلك الخطابات، يقول: "وإضافة إلى ذلك تأتي الوظيفة النسقية عبر العنصر النسقي، وهذا يمثل مبدأ أساسيا من مبادئ النقد الثقافي.. ويمثل لنا أساسا للتحول النظري والإجرائي من النقد الأدبي إلى النقد ببعده الثقافي، وذلك لكي ننظر إلى النص بوصفه حادثة ثقافية وليس مُجتلى أدبيا فحسب" (الغذامي، 2005، صفحة ص65)، وهدفه من ذلك هو البحث عن الأنساق الثقافية المضمرة أو المتوارية خلف الدلالات أو التشكيلات اللغوية الظاهرة لمختلف الخطابات، ومن ثمة الكشف عن مكنوناتها وتحسّس خباياها.

- **المجاز (المجاز الكلّي):** يعتقد **الغذامي** أنّ للمجاز قيمة ثقافية أكثر من قيمته البلاغية/ الجمالية، "فهناك أنماطا سلوكية ثقافية تتحرّك وتتفاعل، وعبر هذا التحرك والتفاعل تتخلق نماذج للقول تسود في الخطاب، ومن ثمّ يأتي الاستعمال الذي يعني وضع الخطاب في وظيفة بأن تجعله يَعمل ويُعمل به، وهنا يولد التعبير المجازيّ ولادة ثقافية تخضع لشروط الأنساق الثقافية التي نسمّيها بالاستعمال، وما الاستعمال سوى المسمّى الإجرائي للفعل الثقافي ذي الطابع العمومي الجمعي" (الغذامي، 2005، صفحة ص67)، بمعنى أنّ المجاز يرتبط باللفظ قيد الاستعمال، والاستعمال فعلٌ عموميّ جمعيٌّ وليس فرديّا لأنه يقتضي الحركة والتفاعل، واللفظ قبل استعماله لا يكون حقيقة أو مجازا، لأنّ هذين الاثنين من عوارض الألفاظ، كما أنّ المجاز يرصد التحولات الدلالية على مستوى اللفظ والجملة والخطاب الثقافي ككلّ، ممّا يكسبه صفة الكليّة والجمعيّة ويجعله يتلاءم مع الوظيفة النسقية للغة.

- **التورية الثقافية:** يرتبط مفهوم التورية عند **الغذامي** بالنسق المضمر، فالتورية، في أصلها البلاغي، تبحث عن معنيين؛ أحدهما قريب والآخر بعيد، لكنّ الإشكال يقع في عملية القصد منها، فالبلاغة التقليدية تربط القصد بالمعنى البعيد بحثا عن موطن الجمال والانزياح والتفرّد، أمّا النقد الثقافي فلا يحصر التورية بالقريب والبعيد مع التركيز على البعيد، وإنّا يهدف إلى الكشف عن النسق المضمر الذي يتلبّس الخطاب عبر تراكمات من القراءة والإنتاج من طرف الذوات الفاعلة والمنفعلة الخاضعة لحركة الأنساق الثقافية (الغذامي، 2005، صفحة ص71).

- **نوع الدلالة (الدلالة النسقية):** يرى **الغذامي** أنّ النقد القديم ميّز بين نوعين من الدلالة: الصريحة والضمنية، الأولى ترتبط بالنحو وتؤدي وظيفة تواصلية نفعية، والثانية ترتبط بالوظيفة الجمالية للغة، فارتأى إضافة دلالة أخرى إلى تانك الدلالتين التقليديتين، وهي: الدلالة النسقية ذات البعد النقدي الثقافي: "وهي ترتبط في علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكوّن عنصرا ثقافيا أخذ بالتشكل التدريجي إلى أن أصبح عنصرا فاعلا" (الغذامي، 2005، صفحة ص72)، وهو عنصر مضمر، يقبع في أعماق الخطابات دون اهتمام النقد التقليدي به، لانشغاله بما هو جماليّ فيها، لكن له فعالية وتأثير في طرق التفكير، برغم التغيرات الفكرية والحضارية التي نعايشها عبر الزمن.
- **الجملة النوعية (الجملة الثقافية):** هو مصطلح أنشأه **الغذامي** في مقابل الجملة النحوية والجملة الأدبية في البلاغة التقليدية، وتنتج عنها الدلالة النسقية التي ذكرناها آنفا، في حين تنتج عن الجملة النحوية الدلالة الصريحة، وعن الجملة الأدبية الدلالة الضمنية، على النحو الآتي:

الجملة النحوية	←	الدلالة الصريحة
الجملة الأدبية	←	الدلالة الضمنية
الجملة الثقافية	←	الدلالة النسقية

يعرّف **الغذامي** الجملة الثقافية بقوله: "هي المقابل النوعي للجملتين النحوية والأدبية، بحيث نميّز تمييزا جوهريّا بين هذه الأنواع، من حيث إنّ الجملة الثقافية مفهوم يمسّ الذبذبات الدقيقة للتشكّل الثقافي الذي يفرز صيغه التعبيرية المختلفة" (الغذامي، 2005، صفحة ص73)، وهي تتولّد عن الفعل النسقي في المضمر الدلالي للوظيفة النسقية في اللغة على حدّ قوله.

- **المؤلّف المزدوج:** يقول **الغذامي**: "في كلّ ما نقرأ وما ننتج وما نستهلك هناك مؤلّفين اثنين؛ أحدهما المؤلّف المعهود، مهما تعدّدت أصنافه كالمؤلف الضمني والنموذجي والفعلي، والآخر هو الثقافة ذاتها، أو ما أرى تسميته هنا بالمؤلف المضمر" (الغذامي، 2005، صفحة ص75)، ويقصد بالمؤلف المضمر؛ الثقافة بكلّ ما تحمله من مفاهيم وأنساق، وهنا تصحّ تسميته بالمؤلّف الثقافي أو المؤلّف النسقي لأنّه هو من ينتج النسق أو ثقافة المؤلّف الفعلي (المعهود)، ويسميه **الغذامي** بالمؤلف المزدوج، لأنه يجمع بين المؤلف المعهود والمؤلف النسقي المضمر، وتغدو الثقافة من هذا المنظور مؤلّفا وموجِّها في الآن ذاته.

ثمّ **النقلة في المفهوم (النسق الثقافي)**؛ يؤكّد **الغذامي** فكرة أنّ النسق الثقافي يتحدّد عبر وظيفته، ومن مواصفات هذه الوظيفة وجود نسقين في النص الواحد أحدهما مضمر والآخر علنيّ، كما ينبغي أن يكون ذلك النص جميلا وجماهيريّا، يحظى بقدرٍ من المقروئيّة، وهذه الشروط أو المواصفات هي التي تستلزم النقد الثقافي لها، كما أنّ النسق الثقافي يشمل عدّة مكوّنات فكرية وثقافية ترسخت في شتى الخطابات عبر التاريخ، يتلقفها القرّاء من كلّ الفئات والأجناس والأعمار.

وللنّسق قدرة على التقنّع والتخفي مدّة من الزمن، ويتمّ الكشف عنه لحظة تسارع الجماهير وإقبالهم عليه، "وقد يكون ذلك في الأغاني أو في الأزياء أو الحكايات والأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات والنكت، كلّ هذه وسائل وحيل بلاغية/جمالية تعتمد المجاز والتورية وينطوي تحتها نسق ثقافي ثاوٍ في المضمر، ونحن نستقبله لتواطئه مع نسق قديم منغرس فينا" (الغذامي، 2005، صفحة ص80)، فالنسق الثقافي من هذا المنظور، يتضمّن بالضرورة، مُضمَرا متواريا، يعمل على إنتاج الدلالة النسقية داخل سياق ثقافي عامّ، هي التي تستثيرنا وتحفّزنا على الإقبال عليه، وتكون قراءتنا له وجها من وجوه النقد الثقافيّ.

وعن **النقلة في الوظيفة**؛ يرى **الغذامي** أنّه إذا كانت وظيفة النقد الأدبي تتجلّى في الترويج والترسيخ للجماليّ، متعمّدا إخفاء النسق وإضماره، ممّا يخلق لبسًا وتشويشا على جمهور القرّاء ويسحر عقولهم بكلّ ماهو جميل ظاهر، فإنّ وظيفة النقد الثقافي، برأيه، تتحقّق لحظة استقبال القراء لخطاب ما وتفاعلهم معه، ولا يتأتّى ذلك إلّا إذا وقع التضارب بين الوجدان الخاص (المكتسبات الجمالية المترسخة في الوعي الذاتي) وبين الوجدان العام (المضمرات النسقية المتحكمة في استجاباتنا وتصوراتنا للأشياء) عندها فقط يقع الجهد النقديّ للمتن الثقافي، والحيل النسقية التي تتجلى مظاهرها فيما يأتي:

❖ الحيلة البلاغية القائمة على تغييب العقل وتغليب الوجدان.

❖ تقديس الجمالي على حساب العقلي والفكري كما تجسّده مقولة (أعذب الشعر أكذبه) (الغذامي، 2005، صفحة ص83).

وعليه فوظيفة النقد الثقافي عند **الغذامي** تتجسّد في الكشف عن الأنساق المتوارية خلف كلّ ما هو بلاغيّ جميل، ونقد الخطابات الثقافية بشتّى أنواعها وتجليّاتها، والسبيل إلى ذلك هو التحقق من سببية مقروئية الخطابات التي تخلق تفاعلا واسعا بصرف النظر عن جماليتها أو قبحها، فذلك التفاعل الواضح هو أُولى عمليات الكشف عن المضمر الخفيّ، وبالتالي أولى عمليات النقد الثقافي.

وأخيرا **النقلة في التطبيق**؛ حيث يعتقد **الغذامي** في كتابه (النقد الثقافي) أنّ هناك صفات وتصوّرات كثيرة لبعض المفاهيم تقبع في الذهن، يجري الاحتكام بها وقت الحاجة إليها، كأن نقول فلان شجاع، فلان متحضّر، امرأة شريفة وغيرها، وهذه الأحكام ما هي إلّا مضمرات نسقية مترسّخة، يجري استحضارها دون وعي منّا، مما يكسبها صفة الهيمنة، وجلّ تلك المفاهيم والتصورات قائم على أفكار مغلوطة، تهتمّ بكل ما هو رسميّ مركزيّ في الثقافة وتُهمل الهامشيّ منه.

ويُعطي **الغذامي** مثالا عن ذلك بالشعر العربيّ، حيث صار المثقفون العرب يدرسونه كمكوّن ذو قدسيّة في الفكر العربي، ولا يجوز التقليل من أهميته، وإنما ينبغي التعامل معه بحذر وحرص، لأنّ شعريّته نموذج خاصّ ومثاليّ للاحتذاء، ولا مجال للكشف عن عيوبه ونقائصه أو حتى عن أنساقه المتوارية خلف بلاغته/جماليته، واستمر الأمر كذلك حتى ترسخ في الذهنية العربية، وصرنا نطلق الأحكام دون كشف أو تبصّر، لكنّ الإشكال يكمن فينا، لأننا لم نبذل جهدا للكشف عن تلك الحيل والخدع النسقية التي سببت ضررا للثقافة العربية والعقل العربي على مر العصور.

2. إرهاصات تشكّل البُعد السياسي في شعر مظفّر النّواب:

يعدّ **مظفر النواب** أحد أهمّ الأدباء المؤسّسين للمشهد الثقافي العربي المعاصر، عُرف بقصائده الثائرة، وشعره المفعم بمعاني الغضب السياسي والنضال الثوري، المثقل بشعارات المقاومة والتحريض والتعبئة، عايش **مظفر النواب** حقبة زمنية حافلة بالأحداث الاجتماعية والمتغيرات السياسية الطارئة، التي كان لها أثرا فاعلا في الحركة الوطنية المعاصرة، والتي انعكست على شعره القوميّ السياسيّ.

يمثّل **النواب** "طليعة من طلائع النضال في التراث السياسي العراقي، وفي حاضره الثقافي أيضا، وهو لم يكن يوما من هواة العيش الهادئ، بل كان مناضلا مهموما بآفة الاستعمار وبحقوق الشعوب المناضلة من أجل حريتها وكرامتها" (يعقوب، 2010، صفحة ص09)، التزم بقضايا الوطن والقومية، وكافح في سبيل قضيته ومبدئه، واستنهض الشعوب الغافية، فدفع ثمن ذلك عُمرا من الغربة والاغتراب، قضاها هائما من بلد لآخر، يسوق ألمه وحزنه حينًا، وغضبه وثورته حينا آخر.

تعرّض **مظفر النواب** للاعتقال أكثر من مرّة، كما مُنع من دخول كثير من الأراضي العربية، بسبب أشعاره المناهضة للأحزاب والتكتلات السياسية المطبّعة في الوطن العربي، وقصائده الراصدة لأنظمة بعض الحكّام العرب المكرّسين للسياسة الاستعمارية في بلدانهم، لاسيما قصيدة (القدس عروس عروبتكم)، (يوميات عروس الانتفاضة)، (قمم)، (أفضحهم) وغيرها من القصائد التي سُمّيت بالقصائد المهرّبة، كونها تحمل أبعادا سياسية تعبوية محفّزة على ثورة الشعوب ضدّ حكّامها، كما تنطوي على أنساقٍ

تحريضية متوارية خلف بنياتها الشعرية، ممّا أثار حنق بعض السياسيين وسخطهم، فأصدروا قرارات صارمة بصدّ مظفر النواب عن حدودهم الإقليمية، ومنع قصائده الثورية من الطبع والنشر والترويج.

3. الأنساق المضمرة في الشعر السياسي لمظفّر النّواب:

1.3. نسق السخريّة:

تُعرّف السخرية بكونها "طريقةٌ في التهكّم المرير ، والتندّر أو الهجاء الذي يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنّه الإنسان، وربّما كانت السخرية أعظم صور البلاغة عنفًا وإخافةً وفتكًا، إنّها طريقة من طرق التعبير، يُستعمل فيها لشخصٍ ألفاظًا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلّم حقيقة، وهي صورة من صور الفكاهة، تعرِض السلوك المعوجّ، والأخطاء التي إن فطن إليها وعرفها فنّان موهوب تمام المعرفة وأحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحا مميتا" (السلام، 2002، صفحة ص32)، وتكون السخرية موجّهَة لبعض الشخصيات أو الأفكار أو المؤسسات التي لا تلقى قبولا عامّا ورِضا لدى الناس، فهي إذن نقد لاذعٌ يحمل علاقة عاطفيّة قويّة بين الساخر وموضوع سخريّته، والساخر يكون واعيًا بسخريّته إلى درجة أنّنا نحسّ بكلّ ظلال التجربة منذ إحساسه بعدم الرّضا حتّى مرحلة التعبير عن هذا الإحساس... وهي تكشف عن الإحساس العميق بعدم الاقتناع من ناحية، وهي تتعرّض لنقد الموضوع بطريقة ساخرة من ناحية أخرى (إبراهيم، 1974، صفحة ص181)، يقول **مظفر النواب** في قصيدة (قمم) ساخرا من القمّة العربية غير المُجدية في حلّ النزاعات الإقليمية، لاسيما قضيّة الاحتلال الصهيوني لفلسطين:

يا قمّة الأزياء.. سُوِّدت وجوهكم مِن قمّة
ما أقبح الكروش من أمامكم
وأقبح الكروش من ورائكم
ومن يُشابه كِرشه فما ظلم
قِمم، قِمم، قِمم، قِمم
معزى على غنم (النواب م.، 2015، صفحة ص294)

في هذا النص الشعري، يتبدّى نسق السخريّة في الجانب السياسي، وهو نمطٌ يقع غالبا إذا ما شاع الاستبداد السياسي وكبت الحريات ومصادرة الإبداع والتحكّم في الآراء والمواقف وغيرها من أساليب السيطرة والتسلّط باسم السياسة.

تكون السخرية السياسية في الشعر أحيانًا، وسيلة ناجعة للتعبير عن الرأي تجاه موقف سياسي معيّن، بمأمنٍ من العقاب، لكنّ المفارقة هنا أنّه في البلدان الديكتاتورية النظام، تتحوّل السخرية السياسية إلى همسٍ تواطئي يشترك به القائل والمستمع (جابر، 2009، صفحة ص183)، أمّا مظفّر النواب، فلم تكن سخريته همسًا، بل هي تصريحٌ جريء بواقعٍ سياسيّ عربيّ، محفوف بالانهزامات والرضوخ.

2.3. نسق الغضب والمواجهة:

تُعدّ القراءة الثقافية وسيلة لاستجلاء المُضمر من النصوص الأدبية وغير الأدبيّة، وتفتح آفاق التأويل واسعة أمام القارئ، وقد وجدنا أشعار **النواب** تضجّ بمعانٍ متوارية خلف صيغها اللغوية، وإن أمكن لنا قراءة تلك التيمات المختزنة خلف قيم فكرية وثقافية واعية، لوجدنا ثيمة الغضب والمواجهة مبثوثة بين ثنايا قصائده، كما يتبدّى في قوله من قصيدة (القدس عروس عروبتكم):

لستُ خجولا حين أصارحكم بحقيقتكم
إنّ حظيرة خنزير أطهر من أطهرِكم
تتحرّك دكّة غسل الموتى

أمّا أنتم.. لا تهتزّ لكم قصبة.. الآن أعريكم...

في كلّ عواصم هذا الوطن العربي

قتلتم فرحي (النواب م.، 2012، صفحة ص55)

انطلاقا من فكرة أنّ النقد الثقافي يتعامل مع النص الأدبي بصفته نسقا ثقافيّا يحمل أبعادا سياسية واجتماعية وفكرية عديدة، فإنّنا نلتمس في هذا النص الشعري المحمَّل بمعاني الغضب والمقاومة بُعدا سياسيا يتخلّل مدلولاته، يُنبي عن تشبّعٍ فكريّ بمعطيات الراهن السياسي في الوطن العربيّ، ويشفُّ عن قيمٍ ومواقف جادّة وجريئة تجاه ذلك الراهن، تكوّنت عبر تراكم جملة من التجارب الواقعية التي شكّلت ركيزة التجربة الشعرية ومعينها الأساس.

ويقول في السياق نفسه، من قصيدة (تلّ الزعتر):

قردة... أتحدّى أن يرفع منكم أحد عينيه

أمام حذاء فدائيّ يا قردة

النّار هنا لا تمزح يا قردة

الشعب الحاقد جاع

أنا أسمع أمعاءً تتلوّى ألما جوعا غضبا (النواب م.، صفحة ص137)

لو تجاوزنا القيم البلاغية (الجمالية) التي تضمّنها المجاز في عبارات (النار هنا لا تمزح/ استعارة مكنية) وكذلك عبارة (أسمع أمعاءً: وهنا مجاز مرسل علاقته الجزئيّة، ويُقصد بالأمعاء؛ جزء من الإنسان/ الشعب الجائع) إلى القيم الثقافية لذلك المجاز، كما ذكر **عبد الله الغذامي**، لوجدنا أنّ العبارتين تمرّران حمولات ثقافية ذات أبعاد سياسية عميقة وواعية في الآن ذاته، ذلك أنّ **مظفر النواب** استشعر غضب الشعوب التائقة للانتقام والثأر ومواجهة رؤوس الاستبداد في بلدانهم، والعبارة اللغوية (الشعب الحاقد جاع) هنا يمكن عدّها تورية، ليس بالمعنى البلاغي المألوف والمتداول، وإنّما بمعناها الثقافي الواسع، كونها تحمل مُضمرا أو خطابا متواريا خلف صيغتها اللغوية، وبالتالي فهي تحمل معنيين؛ أحدهما ظاهرا (الجوع الحقيقي يولّد الحقد لدى الشعوب)، والآخر مضمرا (التوقُ إلى إشباع رغبة الشعب الغاضب في استئصال مُسببات الجوع ونحوِه، ولا سبيل إلى ذلك بغير النار والثورة).

3.3. نسق التعبئة الثورية والتحريض:

اهتمّ النقد الثقافي بالأنساق المضمرة والمتوارية خلف العناصر الجمالية للنصوص الأدبيّة، بهدف الوقوف عند دلالاتها ومرامِيها وقدراتها التأثيرية في جمهور المتلقين، والجمالية من وجهة نظر **الغذامي**، لا يحكمها القانون الرسمي أو المؤسساتي بقدر ما يحكمها قانون الثقافة الشعبية/ الجمهور، فتتحدّد بمدى تأثيرها فيه.

استنادا إلى هذا الطرح، حاولنا استشفاف الأنساق الثقافية ذات الأبعاد السياسية، المكنونة في الخطاب الشعري (الجمالي)، بصرف النظر عن الصور الفنية/الجانب البلاغي فيها، ووقفنا عند هذه الأبيات من قصيدة (أفضحهم)، والتي تُضمر نسق التعبئة الثورية والتحريض، يقول **مظفر النواب**:

قد أذَّن الدم الزكيّ: أنَّ "محمد الدرّة" مَن يؤمّكم

فيا رجال! يا رجال!

وحّدوا الصفوف خلفه

حيّ على السِّلاح (النواب م.، 2015، صفحة ص296)

تتوارى خلف العبارات اللغوية/ الُجمل النحوية في هذا النص الشعري، دلالات نسقية تحوم حول تخوم الواقع السياسي المتشظّي الذي تعيشه فلسطين، وهي دلالات تتبدّى صريحة ظاهريّا، غير أنّها تنطوي على أفكار تعبوية وتحريضية، تكمن خلف

السياق الثقافي الذي يحفّ الجمل النحوية للنص، ويمدّه بدلالات أعمق، تؤيّد موقف الشاعر حول ضرورة المقاومة والكفاح، في ظلّ استشراء مظاهر العنف والهمجية التي جسّدها الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وعليه، فإنّ الجُمل والعبارات النحوية هنا، هي من وجهة نظر القراءة الثقافية، جُمل نوعية/ثقافية، تحمل أبعادا سياسية مضمرة، تتدخّل في توجيه الخطاب الشعري، بغرض التأثير في جمهور المتلقّين وتحريضهم على الثورة، وتغيير مواقفهم تجاه الراهن.

خاتمة:

- يعدّ النقد الثقافيّ نموذجا قرائيّا فاعلا، من جهة اهتمامه بالخطابات الثقافية بشتّى ضروبها ومنها الخطاب الأدبي.
- تمكّنت القراءة الثقافية للنصوص الأدبيّة من تجاوز القراءات التقليدية القائمة على أسس نقدية صارمة تمجّد جمالية النصوص وتقدّس بلاغتها.
- يمكن الجزم بأنّ الأنساق المضمرة يمكن أن تُدلّل على نفسها من خلال عمليات القراءة والتأويل للنص الذي تتوارى فيه.
- يتّضح أنّ النص الشعريّ، وبرغم حبكته البلاغية/الجمالية المُتقنة، التي يتوارى خلفها المُضمر الثقافي، غير أنّ قراءة فاحصة لما وراء الجماليّ، تتجاوز حدود المحسنات والصور البلاغية المشكّلة للنص، لترشد القارئ إلى بعض الأنساق المتوارية.
- تكشف النصوص الأدبية في الغالب، عن حمولات فكرية واعية لأصحابها، من خلال تمرير رسائل سياسية خفية، إلى جمهور المتلقين، تتضمّنها إبداعاتهم.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم ,ن .(1974) .أشكال التعبير في الأدب الشعبي .القاهرة :دار نهضة مصر.
2. اصطيف ,ع .ا .(2017) .ما النقد الثقافي، ولماذا؟ .مجلة فصول ,مجلد 25/3 :العدد (99)
3. الجرياوي ,م .د .(2018) .ديوان نجاح العرسان (فرصة للثلج) قراءة في ضوء النقد الثقافي .مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد:39
4. السلام ,ع .ا .(2002) .السخرية :الدلالة والآليات .م .ا .الثاني، الأدب الساخر، أبحاث وشهادات .مصر.
5. الغذامي ,ع .ا .(2005) .النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية .الدار البيضاء ,المغرب :المركز الثقافي العربي.
6. الموسوي ,م .ج .النظرية والنقد الثقافي، الكتابة في عالم متغير .
7. النواب ,م .(2012) .الأعمال الكاملة .القاهرة، مصر :دار فاروس.
8. النواب ,م .(2015) .الأعمال الكاملة، دراسة وإعداد :سمير إبراهيم .القاهرة، مصر :دار أشرقت.
9. النواب ,م .تل الزعتر، الأعمال الشعرية الكاملة .طرابلس، ليبيا :دار الأوديسا.
10. جابر ,ه .(2009) .النكتة السياسية عند العرب، بين السخرية البريئة والحرب النفسية .بيروت، لبنان :الشركة العالمية للكتاب.
11. عبد الرحمان ,ع .ا .(2013) .النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي، العراق أنموذجا .بغداد، العراق :دار الشؤون الثقافية العامة.
12. يعقوب ,أ .د .(2010) .مظفر النواب، شاعر الثورات والشجن .دمشق، سوريا :دار صفحات للدراسات والنشر.